العرب للتعرّف على اللحظة الأخيرة في «توطين» عناوين كتبهم في قيد النفوس الأدبي بوصفها أختاماً نهائية وتواقيع معتمدة، وذلك بأسئلة تتعلّق بهذا الجانب الخفي من مخاضات الكتابة ومكابدات أصحابها في كيفية عثورهم على عناوين كتبهم، وهل كتبوا نصوصهم ثم بزغت عناوينها لاحقاً، أم أن العنوان كان حاضراً منذ السطر الأول، وهل خضعت بعض العناوين إلى تعديلات لاحقة على المسودة الأولى، بمعنى متى كانت لحظة الطمأنينة إلى أن هذا العنوان أو ذاك هو من سيزيّن كتبهم في نسختها النهائية؟ لا طمأنينة كاملة لدى معظم الكتّاب في صواب العنوان، حتى أن بعضهم يلجأ إلى معونة صديق، كما يفعل عزت القمحاوي مثلاً، فيما تنبّه جيهان عمر إلى أنها افتقدت الثقة التي كانت تلازمها في بداياتها، كتاباً وراء آخر، أما شاكر لعيبي فيحسم الأمر بقوله «لا أختار عناويني بل هي التي تختارني». «كلمات» سأل عدداً من الكتّاب والكاتبات، وقلّب معهم عناوين كتبهم، فكانت الشهادات الآتية:

خليل صويلح

...طياد القارئ؟

مرتبطة عضوياً بهاجس مركزي في الرواية، حدث هذا معي مثلاً في رواياتي «صهيل الجسد» أو «السماء الثامنة» (بالعربية) و La Soumission الخنوع (بالفرنسية).
قد يكون العنوان هو مفتاح للدفق السردي ولكنه يختفي شيئاً فشيئاً بتقدم السرد في اتجاهات مختلفة وبالتالي يفقد ألقه في منتصف الكتابة أو قبل نهايتها وتبدأ عناوين أخرى تظهر لتكون بديلاً عن رحم العنوان حدث هذا معي مثلاً في رواية «الرعشة» أو «لها سر النحلة» (بالعربية) و Festin de mensonges وليمة الأكاذيب (بالفرنسية).
قد يكون العنوان نفسه عبارة عن اشتغال إبداعي منفصل أو يكاد عن النص الروائي، كأن تقوم بمعارضة عنوان تراثي شكّل هاجساً في قراءاتك الإبداعية أو الفكرية، حصل معي هذا في روايتين (حادي التيوس أو فتنة النفوس لعذارى النصارى و المجوس) وكذا في رواية (نزهة الخاطر). قد يكون العنوان أيضاً إحالة على زمن تاريخي بعينه يريد الروائي التأكيد أو تسليط الضوء عليه لبعد سيكولوجي أو جمالي أو سياسي أو حضاري حصل هذا معي في روايتي التي كتبتها بالفرنسية le dernier juif de Tamentit (اليهودي الأخير في تمنطيط) أو رواية (قبل الحب بقليل).

* روائي جزائري

مرحلة أرق

منصورة عز الدين *

يختلف الأمر معي من عمل لآخر. في الغالب أترك اختيار عنوان الكتاب للنهاية، يكون في بالي عنوان ما منذ البداية حتى لو كنت أعرف أنه مجرد اختيار مؤقت، ثم حين أنتهي من الكتابة أبدأ في التفكير في مدى مناسبة العنوان للكتاب. حدث هذا مثلاً مع «وراء الفردوس»، إذ بدأت كتابتها بعنوان بعيد تماماً حتى عن مضمون الرواية نفسها، ومع انتهائي من المسودة الأولى للعمل، فاضلت بين عدة عناوين، مستقاة من العمل، للوصول للعنوان النهائي. «جبل الزمرد» بدأت كتابتها بعنوان «جبل الحياة»، ثم فضّلت لاحقاً العنوان الذي نُشِرت به لأنه أكثر ارتباطاً بـ «ألف ليلة وليلة».
لكن في حالة الرواية الجديدة التي انتهيت من كتابتها قبل مدة ولم تُنشَر بعد، كان العنوان أول ما خطر لي، وانطلاقاً منه بدأت الكتابة، وهذا استثناء في ما يخصني. واللافت أن في هذه الحالة، كانت الكتابة أكثر سلاسة وتركيزاً، ولا أعرف هل لهذا علاقة بوضوح العنوان في ذهني منذ البداية أم لا.
المجموعات القصصية تحيرني عناوينها أكثر، لأن الاختيار يعني في الغالب تغليب قصة ما على باقي المجموعة، وأتذكر أنه بعد نشر مجموعتي «نحو الجنون» سألني أكثر من صديق لماذا لم أختر لها عنوان «ليل قوطي» لانحيازهم لهذه القصة أكثر من غيرها، وكان ردي أن الجنون بدرجاته وأنواعه هو الرابط الخفي بين قصص المجموعة، في حين أن «ليل قوطي» لا ينسحب إلا على قصة واحدة.
بالنسبة لي اختيار العنوان من أكثر المراحل المؤرقة، وأجدني حين أحتار في الوصول لعنوان يرضيني، أحسد الكاتب البولندي غومبروفيتش لاستهانته بالعناوين، إذ كان ينظر إليها كمجرد وسيلة لتفريق عمل عن آخر، وذكر مرة أنه اختار «فيرديدوركه» عنواناً لروايته الشهيرة لأنه بلا معنى وصعب النطق بالبولندية!

* روائية مصرية

هي التي تختارني

شاكر لعيبي *

كان بودي الإجابة على السؤال بجملة واحدة: «لا أختار عناويني بل هي التي تختارني». هذا بالنسبة لي جواب شافٍ، رغم قلة الصبر التي قد ترشح من صياغته. أحسب أن كل جواب آخر من طرفي لن يضيف شيئاً للفكرة الجوهرية تلك، سوى إضاءتها في الغالب. هذا هو جوابي حقاً. دائماً ما انتظرتُ أن يفرض العنوان نفسه عليّ. أحياناً فرض نفسه على العمل برمته قبل اكتماله. مرات اختار نفسه فجأة في مرحلة ما من الكتابة مثل مجموعة «الأدنى والأقصى». العناوين هي التي اختارتني برفق. مرة واحدة فقط ساعدني أحدهم عَرَضاً وأنا أتساءل عما يمكن أن يكون عنوان مجموعة شعرية مهمومة بالميتافيزيقا رغم ظاهرها الأيروتيكي، فقال: ميتافيزيك. وهكذا اختار العنوان نفسه من جديد مداوَرة. وحتى الأعمال التي كتبتها أو ترجمتها، متسلسلة إذا صح التعبير، على الفيسبوك، قد اختارت عناوينها هي بنفسها، إذ يتذكر أصدقائي أنني منذ البدء نشرتُ أنطولوجيا الحب بعنوان «انطولوجيا الحب» والآن «تاريخ التصوير الإسلامي: من وجهة نظر المرسوم على الخزف» بهذا العنوان. وأحسب أن الرغبة الملحة، الثيمة الملحة، الفكرة الملحة والمفهوم الملحاح، حتى إذا لم تكن بالوضوح الكافي، بادئ الأمر، في ذهن المؤلف هي التي تفرض عناوينها. العنوان الوحيد الذي لا يختار نفسه بنفسه هو «الأعمال الكاملة» الذي نفرضه فرضاً.

* شاعر وناقد عراقي

مثل الرأس من الجسد

جيهان عمر *

العنوان هذه البداية التي أؤجلها للنهاية، إنه مثل الرأس من الجسد كاشف ودال يتجهم ثم يبتسم في خبث، صادق، مخادع، أو كاذب ومحتال. العنوان الكلمة نفسها المثقلة بالوعود، لكن هذه الطمأنينة بالفعل هي التي تحسم الأمر في النهاية. شعرت بها في ديواني الأول، كان اسم قصيدة من الديوان، كما اعتدت أن أفعل بعد ذلك، وقد يبدو حلاً سهلاً، ورغم ما يحمله نشر الكتاب الأول من خوف وتردد إلا أنني كنت حاسمة: «أقدام خفيفة». تعجّب حسني سليمان صاحب «دار شرقيات» قائلاً: «انظري إلى عناوين بقية القصائد معظمها لافت وجريء». أجبت «لكن قصائد الديوان خافتة تماماً مثل هذا العنوان». تعجّب من ثقة شاعرة مبتدئة وآثر الصمت. في ديواني الثاني مع الدار نفسها، سألني الناشر بعد قراءة الديوان إن كنت قد اخترت عنواناً فأخبرته «قبل أن نكره باولو كويلهو»، فأطلق ضحكته الرنّانة النادرة وقال: هيا دعك من الدعابات الآن. قلت له أنا لا أمزح، فحاول أن يثنيني عن هذا العنوان الغرائبي باختيار أسماء قصائد أخرى، فلم أنصت إلى اعتراضه، لقناعتي بصواب هذا العنوان بالنسبة للمحتوى. ديواني الأخير الذي تردّدت في نشره خمس سنوات كاملة، أرهقني عنوانه تماماً، إذ غيّرت العنوان نحو عشر مرات. في كل مرة أختار عنواناً يلازمني مدة يوم أو يومين ثم أتخلى عنه مثل حبيب مؤقت، وحينما فقدت الأمل في قدرتي على الاختيار ذهبت إلى «دار العين» التي تبنّت نشره وأنا أتأبط أفضل خمسة عناوين، وكان محرّر الدار تامر عفيفي شاعراً أيضاً، فاختار من بين عناويني المقترحة «أن تسير خلف المرآة» ووجدتني أرتاح لأول مرة لفكرة أن يشير أحدهم الى أحد العناوين التي أرصّها في الصفحة مثل قطط صغيرة متشابهة وحديثة الولادة، لا أستطيع التمييز بينها. الآن أرغب أن تعود لي ثقتي القديمة، فمنذ أكثر من عشر سنوات كنت أضع العنوان أمام الناشر بثقة تفوقني حجماً، وقلبٍ مطمئن انتظر عودته.

*شاعرة مصرية

> حين أنتهي من الكتابة، أبدأ بالتفكير في مدى مناسبة العنوان للكتاب

طغراء الكتاب وختمه

محمد مظلوم *

بهجةُ العثور على عنوانٍ لكتابي، الشعريّ تحديداً، تُضاهي لحظةَ اكتمال الديوان نفسه، ولعلَّها تُشبه صرخة أرخميدس: «وجدتُها!» ولأنني أميل في تجاربي الشعرية إلى «الكتاب الشعري» وليس المجموعة، بمعنى أنني لا أجمع قصائد متفرقات في عنوان، وإنما أقارب موضوعاً يحتملُ النظرَ إليه من زوايا نظر متعدَّدة، كان العنوانُ، بالنسبة لي «الجامع المانع»، هو طُغراء الكتاب وختمه، وهو قصيدة أخرى، ربما أقصر القصائد، وأكثرها امتلاء بالدلالة، لأنَّه يمسكُ بالمضمون العام للكتاب باختزال وإيحاء مكثفين. إنه عندي أشبه ببيت القصيد. «وروح الشعر في بيت القصيد» بتعبير ابن عربي.
العنوان عندي هو الاسمُ، والنصُّ هو المسمَّى، وإذا كان كل كتاب مثل «مولود جديد» كما درجت عادات المؤلفين في وصفِ كُتبهم، فإنَّني أقربُ إلى تفكير الآباء في الشعوب القديمة من الآباء العصريين! فأولئك كانوا ينتظرون حتى ولادة أبنائهم، خاصة مع عدم وجود «السونار» لمعرفة جنس الجنين ذكراً كان أم أنثى؟ ليختاروا له الاسم المناسب، وكثيراً ما تختزلُ تلك التسمية وقائعَ وأحداثاً طارئة، لتجعلَ اسمه «مستوحى» منها. أتذكر، مثلاً، تلك الحكاية عن تسمية جدِّي الأكبر الذي حملت اسمه، فقد وُلِدَ بعد أيامٍ من موت والده، لذلك اختاروا له هذا الاسم: «مظلوم!»
غالباً ما أسمي كتبي تسميات عدَّة قبل أن أستقر على التسمية النهائية، ظاهرياً ربما يبدأ العنوان قبل النص، لكنَّه في الخيمياء الداخلية للنص، يتغيَّرُ مرَّاتٍ ومرات، فلم يحدث أنه بقي معي حتى النهاية إلا مرة واحدة في جميع كتبي الشعرية، يموتُ العنوان مرَّاتٍ عدَّة ويحيا من جديد، قبل أن يأخذ صياغته الأخيرة، إنه يمحو نفسه وينقح زوائده ويتناسخ قبل أن يستقرَّ على تسميته النهائية، تلك التسمية التي غالباً ما تكون قبل وقت قصير جداً من دفعه للناشر. عندها فقط يكون الأمر بمثابة الاستسلام النهائي للاسم/ العنوان.
المرَّة الوحيدة التي ولد فيها العنوان حتى قبل أن أكتب أية كلمة من الكتاب، وبقي حياً حتى آخر كلمة فيه، كانت في ديواني «كتاب فاطمة» واللافت أن هذا العنوان قد ولد أيضاً من موت متعدِّد، موت متعدِّد حقيقي وليس مجازياً هذه المرَّة: امرأة وتوأميها!

* شاعر عراقي

عملية نحت

حمور زيادة *

لا أزعم أن هناك طريقة واحدة أستخدمها. عادة ما أفضل أن يكون هناك عنوان ما للعمل أثناء الكتابة. أفكّر في العنوان وأنا أجمع خيوط العمل (رواية أو قصة) في ذهني. أعتبر العنوان حاضناً للكتابة. من الصعب أن أكتب بدون عنوان. لكن عناوين قليلة هي التي استمرت معي حتى نهاية العمل. أما كيف يتغير العنوان فهذا لا أعرفه. أحياناً أنحت العنوان نحتاً كلما تقدمت في الكتابة. وفي أحيان أخرى يأتي كأنه كان مسمى في مكان ما ورأيته فجأة. عملي الأول «سيرة أم درمانية» اخترت اسمه بعد أن تحفظ الناشر المصري على العنوان الأول الذي كان شديد السودانية. فرأى أنه لن يفهم بشكل سليم ولن ينطق بشكل سليم، مما سيعطي معنى بعيداً عن المقصود. عنوان «سيرة أم درمانية» نحته نحتاً. كان العمل مكتملاً وعلى وشك الدخول إلى المطبعة وأنا أكتب وأكشط لأستولد عنواناً يناسب العمل. اعتبرت تحفظ الناشر أمراً يقع في دائرة اختصاصه بالتسويق. بينما عنوان «النوم عند قدمي الجبل» أتاني مع فكرة القصة. جاء العنوان بصحبة التفاصيل. ولم يتغير وشكّل مسار العمل. بينما أعمال مثل «شوق الدرويش» (رواية) و«الخواء» (قصة) و«حكاية حسنة بنت قنديل وما جرى بسببها» (قصة)، أتت أثناء الكتابة بعد عناوين أولية سابقة.
كل هذه العناوين، التي تُنحت نحتاً أو تُشرق فجأة أو تتولد أثناء الكتابة كلها أحكم عليها بالطمأنينة التي تأتي معها. حين أحس أن العنوان والعمل قد تآلفا كقطعتي بازل في مكانهما. في مرات نادرة كان العنوان الذي أطمئن إليه لا يلقى ترحيب الأصدقاء المستشارين. وعادة ما أمشي مع تقييمهم وأبحث عن طمأنينة أخرى في عنوان آخر.

*روائي سوداني